

المقطف

الجزء العاشر من السنة التاسعة . تموز . يوليو ١٨٨٥

— ٥٥٥ —

ادوار حياة الانسان من الولادة الى الموت^(١)

لجناب الدكتور بوحنا ورتبات

عضو المجمع الطبي الجراحي في ادنبرج وجميع الامراض الراضة في لندن وطبيب مستشفى امراء
مار بوحنا في بيروت

قليل ان جل ما يبحث عنه الانسان هو الانسان نفسه ولا سبيل الى الريب في هذا القول
سواء نظرنا اليه من حيث كونه اعلى المخلوقات المنظورة او من حيث الفائدة الكلية التي تعود الى
الباحث من معرفة نفسه . وبناء على ذلك لم يكن شيء من تركيب الانسان وبنائه ووظائف
اعضائه وقواه العاقلة واختلاف اجناسه وامراضه وكيفية دفعها بالدواء او بالتدبير الصحي ومقامه
في الكون وما يتوجب عليه نحو الله والبشر الا يبحث فيه العقلاء من الزمن القديم الى هذه الساعة
وقد نشأ من هذا البحث علوم كثيرة انفرد اليها بعض العلماء فانفقوا درسها وتعلمها وتصنيف
الكتب فيها بحيث لا يتأتى الآن لاحد ان يدرك في جميع هذه العلوم ويعرفها معرفة من انفق حياته
في درس علم واحد منها وانما غاية ما يبلغه المجتهد في هذه الايام معرفة المبادئ العامة من هذه العلوم
الواسعة

وليس لنا الآن ان نتعرض لشيء من هذه المباحث وانما تقتصر في الكلام على التغيرات التي
تحدث في بنية الانسان الجسدية والعقلية والادوية من زمن ولادته الى موته اي من المهد الى القبر
وهو امر كثير ما اشغل افكار الفلاسفة والشعراء والتأمل فيه مفيد على الخصوص للشبان

(١) تخطيطه تلاها في الاحتفال السنوي لجمعية شمس البر في ١ ايار سنة ١٨٨٥

الذين قطعوا مسافة من الحياة ولم يدركوا التقلبات التي حدثت فهم ويخشى ان لا يشبهوا الى ما سيحدث لهم اذا خطفهم الموت قبل وصولهم الى الهرم والاحتلال . والثالثة من ذلك انه اذا كانت الحياة قاعدة كل اعمال الانسان فمن الضرورة ان تكون صفات ادوارها المتعاقبة اي انتقال الطفل الى الشاب والشاب الى الكهل والكهل الى الشيخ والشيخ الى الهرم من الامور التي يجب على الشاب العاقل ان يقف عندها ويتأمل مصيرها

رأيت مرة ما تخيلة احد المصورين من هذا القيل فكنى عن الحياة بجبل وجعل للانسان خمس منازل لكل منزلة صورة . فدرى في الصورة الاولى ولذا يرح في حقل جميل وفي يد بطاقة من الزهر يرميها في الهواء ثم يتلقاها وعلى وجهه لوانح الفرح بلا اكتر من لما حوله . فاما الحياة الثانية العوبة يتسلق بها وهو سعيد راض لا يحل شيئاً من انتقال الدنيا خال من كل غم على ماضى وم لا يأتي . وفي الصورة الثانية صار الطفل شاباً وبدأ له شيء من عسر الحياة لاننا نراه صاعداً جبلاً غير انه في قوة شبابه لا يبالي بهشقة الصعود وقد رفع يده الواحدة ما كنى عنه المصور بجبل الحياة وهو لا يشعر بثقله وعليه لوانح الافتخار والافتخام وعدم الخوف . وامسك يده الثانية الصبية التي اختارها رفيقة له في الحياة يعينها في الصعود ولا نرى لها حلاً الا سلة ازهار صغيرة . وفي الصورة الثالثة بلغ الشاب منزلة الكهولة وزالت عنه علامات الكبرياء والافتخام وظهرت على وجهه لوانح الكدر وخيبة آمال الشباب وهو حامل حلة بلا نعب ولكن بلا افتخار . وقد زال جمال امرأته الماسكة به وتبدل بالكفة والحزن . وفي الصورة الرابعة صار الكهل شيئاً فابيض شعره وانحنى ظهره وصار حلة تسراً لاننا نراه بجيلة مسافة ثم يضعه على الارض ليستريح ثم بجلة ويسير به . والصورة الخامسة صورة الهرم الحزن لان الشيخ ضمير وهزل ولم يبق على راسه الا قليل من الشعر . وهو مطروح على الارض تحت ثقل سنه وامامة قبر مظلم مفتوح واما حلة الذي لا يزال قابضاً عليه فقد سبقت الى الحفرة وهو يجذب اليها رغماً عن مقاومته الضعيفة لانه بلغ حافة النهر الذي عما قريب يتسلقه

تقسم حياة الانسان الى ثلاثة ادوار كبيرة الاول دور النمو والثاني دور البلوغ والثالث دور الانحطاط ويميز الاول بالزيادة في حجم الجسد وثقل وقوته وبارئانه تدريجي في وظائف الجسد والعقل . وسبب هذه الزيادة والارتفاع تغلب احد العاين القائمين على الدوام في جميع الاجسام الآلية وهما البناء والذئور او التركيب والتحليل مع التحسين في بناء الاعضاء بحيث انه لا يزيد حجمها فقط بل ترتقي في حسن العمل اي في قضاء وظائفها ايضاً . وفي الدور الثاني متى بلغ الانسان اشد من القوة توازي العنان اي ان الطبيعة تبنى الانسجة كلما دثرت وتعوّض كل الخسارة الناشئة

من تمل الاعضاء . وتدوم هذه الموازنة ما دام الانسان في قوته الطبيعية . وفي الدور الثالث تظهر اولاً علامات منذرة بالضعف العام الذي ينتهي الى العجز عن اعمال الحياة النشطة . وفي هذه المدة تنقص قوة التركيب ويتغلب عليها عمل التحليل وتشتد التفتت مع تقدم الشيخوخة الى ان يصل الانسان الى الهرم التام . وعلى ذلك لنا اولاً مدة استعدادية تبدأ عند اول نعمة الحياة وتنتهي بين السنة الخامسة والعشرون والثلاثين ثم مدة البلوغ التام بين السن المذكور والسنة الخامسة والاربعين الى الخمسين ثم مدة الانحطاط التي تنتهي غالباً نحو السنة الخامسة والسبعين . غير انه يجب ان يضاف الى ما سبق ان هذه الادوار يختلط بعضها ببعض الآخر بدون ان يكون هناك خط فاصل واضح بينها وان سرعة النمو وقصر مدة البلوغ وعجلة الشيخوخة والهرم موقوف بعضها على نوع البنية الموروثة وبعضها على نوع المعيشة وعوائد الحياة التي كثيراً ما تؤدي الى العجز المبكر اذا لم تكن سبب الهلاك السريع

اذا وقفنا عند سرير طفل مولود حديثاً وتأملنا فيه لا نرى الا الضعف التام والمهلا لانه لا يقدر على شيء ولا يفهم ولا يميز شيئاً . حواسه الظاهرة لا تأتي بصورة عقلية ويقضي أكثر زمانه نائماً ولا يبكي الا اذا كان جائعاً او مثلاً . ولكنه لا يات طويلاً حتى يأخذ في ثمرين حواسه وادراكه ما حوله بواسطة وتدرج فيه عادة المراقبة والتأمل وفي عادة لا تتأخر مدة الحياة . ومن العجب ان هذا الطفل الضعيف يصير رجلاً شديداً البأس صبوراً على احتمال الاعمال الشاقة وتدير الامور الكبيرة واتقاهم الاخطار والخوض في بحار العلم وربما صار شهيداً في زمانه له اسم عظيم واعمال معتبرة تترك له ذكراً دائماً . وفي ذلك سر من الاسرار العجيبة التي اودعها الخالق في الطبيعة وهو سر النمو والارتفاع . ونظهر في الطفل اولى الانسان اللبنة نحو الشهر السابع ونتكامل في السنة الثالثة حيث ينتهي من الطفولة . وفي اثناء هذا السن يتعلم الطفل المشي ويبدأ في التكلم وتناول الطعام البسيط .

ويعقب هذا السن سن الصبوة وهو يتد الى بداية التسنين الثاني اي الى بداية السنة السابعة على قول بعض والى نهايتها على قول البعض الآخر . وفي خلال هذا السن يكون الولد كثير النشاط والحركة فيطلب الطعام دفعات كثيرة في اليوم لاجل تعويض ما ينحسر بسبب الحركة الدائمة ولاجل عمل النمو وينام باكراً وطويلاً لاجل استرجاع القوة العصبية التي ينفد في اجهاد الجسد والمقل وتشتد فيه عادة الملاحظة والتأمل وينمو فيه الدماغ بسرعة عظيمة . وبناء على سرعة النمو الجسدي والعقلي في هذا السن كان حجر الوالد عن الرياضة الكافية واجهاد عقله في الدرس سبباً عظيماً في ضرر قواه وربما تربت فيه عداوة متفككة للدرس والمدرسة والمدرسين .

وقد نقرر على ما علم ان الولد الذي يرسل الى المدرسة في السنة الخامسة والولد الذي يبدأ درسه في السابعة يستويان في العلم والمعرفة في السنة العاشرة ولذلك لا يكون من الصواب اشغال الولد في الدرس قبل السنة السابعة. ولما كان الاولاد في هذا السن منعكفين على المراقبة والتفكير وجب الانتباه الكلي الى ابعادهم عن كل ما من شأنه ان يضر باخلاصهم وادابهم

ويدوم التسنين الثاني من السنة السابعة الى السنة الرابعة عشرة وهو زمن الفتوة الذي يصرفه الصبيان في تعلم صناعة لاجل المعيشة او في المدارس حيث ينال الصبي او البنت شيئاً من مبادئ العلم التي تكون - او يجب ان تكون اساساً يبني عليه تعليم الانسان لنفسه. مدة حياتهم او تعلمه في المدارس العالية ولذلك كان لهذا السن اعتبار عظيم في خير الانسان . ولا يسعنا هنا الكلام الطويل في هذا الباب العظيم الشأن فنقتصر على التنبية الى ثلاثة امور كبيرة

الاول ان العلم في المدارس لا ينحصر في اكساب الطالب معرفة يستعملها ويستفيد منها كمعرفة القراءة والكتابة ومبادئ النحو والحساب والجغرافيا والتاريخ وما يشبهها ولكنه يمتد الى العقل وتقوية ويربي فيه مزاي التامل وحصر القوة العاقلة في المباحث التي يلتفت اليها ويؤهلها الى حسن التصرف في تدبير امور الحياة ولا سيما اذا كانت مهنة من المهن التي تقتضي على الخصوص ثبات الفكر والحذق وصحة الحكم

ثانياً المدارس في البلاد الشرقية حديثة لا تزال قاصرة عن الايفاء بهذا الغرض العظيم وذلك سواء نظرنا الى رتبة المعلمين او كتب التعليم او كيفية التدريس . وهذا امر لا يطع في نواله الا مع مرور الزمان وارتقاء الامم الشرقية واتباعهم لما توصلت اليه الشعوب المتقدمة بعد خبرة طويلة في امر المدارس والتدريس ولذلك فمن حكمة الاباء ان يختاروا لاولادهم افضل المدارس الموجودة وان لا يباليوا بزيادة ما يترتب عليهم من الاجرة والنفقة اذا كان ذلك في طاقتهم لان هذا خير ما يتفق على الولد . ومن مصلحة الشبان بعد تحصيلهم ما امكن في احسن المدارس ان يتعكفوا على المطالعة بعد خروجهم منها ويربوا في انفسهم عادة الدرس المستمر وان يعرفوا ان القسم اليسير الذي نالوه من العلم انما هو يسير جداً لا يزيد الا بالجد الطويل

ثالثاً يجب ان يضاف الى التربية العقلية في المدارس تربية القوة الجسدية بواسطة الملاعب العنيفة والرياضة النشطة في الهواء المطلق . وذلك لان الجسم في هذا السن الى ما بعد السنة العشرين لا يزال ينمو نمواً سريعاً ولا يعينه شيء كما تعينه الرياضة اليومية الكافية ولا اظن انه يكفي الشاب اقل من ثلاث ساعات كل يوم تنفق كلها فيها . واذا شئنا ان نعرف الفائدة الناشئة من ذلك فلننظر الى اهل البر الذين اكثر معيشتهم في الحقول والبراري واهل المدن الذين

بصرفون زمانهم في البيوت والمحانيث ومن هذه المقاتلة نرى الفرق العظيم بين الفتيين في القوة وصحة الوجوه والابدان . او اذا شئتم مقابلة أخرى فانظروا الى نشاط شبان الافرنج واقدامهم على الاسفار الطويلة والامور الكبيرة وعدم مبالاتهم بمشاق الحروب والى محبة الراحة والكمال والتواني وخوف الاخطار التي نراها عامة على شبان المدن في هذه البلاد . وانا لا اعرف سببا طبعيا لهذا الفرق الا ان الفريق الاول جعل تمرين الجسد وتمرين العقل في مرتبة واحدة رفيعة اذ لا صفاء لعيش الانسان بدونها متبعاً قول الفيلسوف الروماني " ان افضل ما يتغيرو الانسان صحة العقل مع صحة الجسد " واما الفريق الثاني فلم يجر هذا المجرى

ونحو السنة الخامسة عشرة يظهر تغير عجيب في بنية الفتي وهو دور الانتقال الى قوة الشباب وجما الوحيث تبد عليه علامات الشجاعة والاقدام والعمويل على النفس والميل الى مباشرة الاعمال التي تزيد فيه كلما تقدم في العمر الى ان تبلغ اشد هامتها صار رجلاً كاملاً . واما البنت فيظهر فيها الشعور بالحياء والحشمة والاعتزال وغيرها من الصفات الانثوية الخاصة بحسبها . ويخشن صوت الذكر ويخفص سلكاً او اكثر من السلام الموسيقية واما الانثى فتدوم لينة صوتها مع ارتفاع نغمته . ويظهر في الذكر والانثى الميل الى الجنس الخالف الذي يندد في الشاب الى ان يصير مع الزمان خلقاً غالباً على ما يتبدل بعد ذلك بخليتي محبة الارتقاء والمال

الشباب زمان الزرع من الحياة لانه في هذه المدة اي بين السنة الخامسة عشرة والسنة الخامسة والعشرين ينحدر الشاب منه او حرفة يتعلمها وهو يتقاد في ذلك اما لما فيه من الميل الطبيعي الى تلك المهنة او لاسباب خاصة لا تمكنه من الاختيار . وهي المدة التي تتكون فيها الصفات والعوائد الحسنة او الرديئة ويندر ان يتخلص الشاب بالكلية من عمل التجارب الكثيرة التي تحيط به حيثئذ . فتم شاهد في اهل وعشراة مثلاً صالحاً وجعل اهل الفضل الذين عرف سيرتهم او راقبها قاعدة لحياة تحته على الكد والاستقامة والطهارة ورفع عواطفه وآماله الى مقام رفيع منيد بين الناس وجد في المسير بكل ماله من القوى والوسائط نال غالباً بعض ما يرجوه . وبالعكس اذا لم يضع غرضاً رفيعاً تجاه عيشه لا يسهه نهائراً ولا ليلاً ولكنه جعل الكسل والبطالة واللبوداية وسلم نفسه للرذائل والعوائد الذميمة كان مصيره الى الذل والمسكنة وربما آل به الامر الى الخراب العظيم . فليسمع الشبان قول شيخ خبير بامور الحياة كتب منذ ثلاثة آلاف سنة وكل جيل بعده يصدق لما كتب - " يا ابني ان تملك الخطاة فلا ترض لا تسلك في الطريق معهم ابع رجلك عن مساكنهم . تمسك بالادب لا ترخو احفظه فانه هو حياتك . كنوز الشر لا تمنع . العامل بيد رخوة يفتر اما يد المجتهدين فتغني . لا يمل قلبك الى طرق المرأة الاجنبية ولا تشرد في

مساكنها طرق الهاوية بينها هابطة الى خضور الموت . راس الحكمة مخافة الله من يجدها يجد الحياة وينال رضى من الرب ومن يخطئ عنها يضر نفسه كل مبغضها يحجون الموت

وهناك امور اخرى كثيرة يجب على الشاب ان يلتفت اليها ويطلبها كالحزم اى التصرف في عواقب الامور وتدير السيرة بمنتهى ذلك والصدق في الكلام والاستقامة والعدل والامانة في معاملة الناس والاحسان الى المحتاجين وعمل المعروف وعادة اللطف والانس والشهامة وعزة النفس . وفوق كل ذلك احترام الدين والقيام بشعائره مع الاعتقاد الثابت انه لا يأمر الا بالخير ولا يحرم الا الشر وانه من اعظم العوامل في ردع الانسان عن الفسج وتقرضه على الصلاح وانه يرشده في سبيل السلامة في هذه الحياة الى اخرة صالحة بعد الموت

ثم اذا تقدمنا خطوة اخرى في ادوار الحياة رأينا ان الانسان يبلغ أشده نحو الجسد والقوة نحو السنة الثلاثين على ان الدماغ يدم في زيادة العقل الى ما بعد الاربعين وتوافق هذه الريادة المعرفة والخبرة والقوة العاقلة . وقال البعض ان السن الاوفى للزيجة هو نحو السنة الثامنة والعشرين للرجل ونحو العشرين للمرأة . وقالوا ان الصفاء فيها لا يكون غالباً الا اذا وجد بين الزوج والزوجة التساوي في المقام والمال والدوق والمخلق ومذهب الدين والآداب . وهي حالة يدفع اليها كل الناس وكثيراً ما تكون كلعب الميسر يخرج الانسان ورقة بيضاء بدلاً من الثروة العظيمة التي طع بها . ولما كانت الزيجة وثاقاً شرعياً لا يحل عند النصارى كان من الواجب الضروري الحذر والتبصر قبل الدخول في هذا الوثاق الدائم . ثم اذا لم يكن اتفاق بين الزوج والزوجة كان السيل الا صوب المسالة والاحتمال والصمت دفماً للنزاع الدائم الذي لا يورث الا الكدر والعار . قال سليمان الحكيم "من يكدر بيته يرث الريح"

وبصح في هذا المقام ان نذكر شيئاً من الاختلاف بين الرجل والمرأة في البنية العقلية والادبية . المقرر عند عامة العلماء ان القوى العاقلة في النساء اضعف غالباً مما هي في الرجال على ان قوة الادراك والتمييز البدئية احد واسرع فيهن . والمرأة من الشعور بحاسات الغير وما يحتاج الى افكاره ما ليس للرجل غير انها قاصرة في ثبات الاجتهاد العقلي المتصل وهي لا تدرك مسألة عند البحث ادراكاً يحيط بكل وجوها كما يدركها الرجل . وهي ضعيفة الارادة بالنسبة الى الرجل ولكنها اشد منه احساساً ولذلك تراها شديدة الانفعال النفساني الذي كثيراً ما يسوقها الى العزم والعمل الشيط قد عدل عنه متى سكن فيها هيجان النفس خلافاً لما يشاهد في اعمال الرجل الذي يساق الى اعماله بواسطة قوته العاقلة فيجد فيها جداً ثابتاً لا يثني عنها . وبناء على ذلك قالوا ان المرأة ادق من الرجل في مقام العقل وازرع منه في شدة الاحساس وطهارة البنية واقدر على احتمال الآلم

والمصائب فهي في غاية الموافقة لتكميل تقصه وترقية قواه التي كانت لولاها تنجى الى الخامسة ومصلحة الذات . وهذا النول صحيح على الاغلبية لا على الاطلاق لان لبعض النساء عنقولا يندر وجود مثلها بين الرجال وبعضهن كسبن بعجز كثير من المصنفين ان يأنوا مثلها . ويكفي ان تذكر في هذا المقام اسم مادام دوستايل الفرنسية وجورج اليوت الانكليزية وميس سترو الاميركانية وفخر العمر ما بين السنة الثلاثين والسنة الخامسة والاربعين وهو المدة التي ينال فيها الانسان اشد من القوة الجسدية والعقلية وبأني باعظم الاعمال التي تميز بها حياته . على اننا نشاهد في ماضى من التاريخ وفي الزمن الحاضر رجالا قدرتهم في الشجوخة لا تعجز عن القيام باعظم المهمات البشرية كبنامارك الالماني الذي بلغ الآن السنة السبعين وكلاستن الانكليزي الذي بلغ السادسة والسبعين والاستاذ فليشر الذي بلغ الثمانين ولا يزال يعلم اللغة العربية في مدرسة ليسك الشهيرة . غير ان هؤلاء الرجال جبايرة خارجون عن القياس العام الذي يجعل السنة الخامسة والاربعين او الخمسين حدا ما يبلغه الانسان من القوة ثم يتبدى منها زمن الانحطاط والتفترق الى الشجوخة والمهرم

وقد اهتم دور الانحطاط بغية وقد باتي يبطوء لا يشعر به . وهذا الخلاف موقوف بعضه على صحة البنية واكثره على عادات الحياة السابقة . فان كان الانسان متعودا الرياضة الكافية للجسد والعقل بدون اجهاد مفرط وكان نومه كافيا للراحة مدة الليل وكان طعامه مغذيا بدون شره ومرتبيا في اوقات معينة وتجنب الاسباب المضرة بالصحة دام فيه النشاط الحيوي زمانا طويلا بدون نقص كبير . غير انه مهما عمل فليس في طاقته ان يمنع ما لا بد منه فيبدأ المشيب عند ذلك او قبله ويندرج بهبوط القوى وزوال تضارة الشباب . ونحو ذلك الوقت تضعف الخيلة والعواطف دون القوى العاقلة التي تستند مع زيادة الخبرة فان الخبرة استاذ البشر وهي لا تأتي الا مع تقدم السن الذي لا يبلغه الانسان الا وقد حطت مساعيه في الغالب وخابت آماله فوقف مخسرا على ما فات مصدقا لقول الشاعر الروماني الفاضل "بلغت سفيني المرفأ وهنا اودع الامل الذي طالما هزأ بي فليهبز الآن بغيري" . قال بيكنسيلد في بعض كتبه "انما زمان الشبان زمان الخطا وزمان الكهولة زمان الجهاد وزمان الشجوخة زمان الاسف"

ينتهي دور المهبوط الى هرم الشجوخة حيث يتغلب دور انجبة الجسد على التعويض عنه بواسطة التغذية فيندر ان يستطيع الانسان عملا كثيرا بعد الستين حيث يضعف البصر ويتقص السمع وتقص القامة وينكمش الوجه وتفل الذاكرة ولا سيما في الامور القريبة العهد ويضعف الفهم والقوة الساكرة وبأني الشيخ المحركة ويطلب السكون والراحة . وقد سبق ما لكل ذلك

من الشذوذ الذي لا يبنى عليه قياس
وبما تكون هذه التغيرات جارية مدة ادوار الحياة يظهر معها عادة ثلاثة أهواء تتنازع النفس
ويغلب احدها الآخرين بحسب الدور الذي يكون الانسان فيه . وهي العشق والمناظرة ومحبة
المال فالاول يغلب مدة الشباب والثاني مدة الكهولة اي بين السنة الثلاثين والخامسة والاربعين
والثالث بعد السن المذكور الى نهاية الحياة . اما العشق فيندر ان يخلص الانسان من سطوته
القاهرة او من عذابه الاليم الا اذا كان معتدلاً حلالاً . ومن شأنه ان يرفع صفات الانسان
ويحرك فيه عزة النفس واللفظ ولكنه كثيراً ما يحطه ويسوقه الى الاثم والعار والويل فللشباب
ان يتبصر بكل ذلك ويتدبر في امره

واما المناظرة وهي حب الرفعة فيراد بها هوى في النفس يغلب في اولسط الحياة ويسوق
الانسان الى طلب التقدم على غيره في المقام والغنى والاعتبار والصولة على القوم الذين يكون
هو بينهم . ولما كان ناشئاً عن العجب بالنفس رافقه دائماً الغرور والنهور والتكلف وكثيراً ما
يقود صاحبه الى الاحجاف مجتوق الغير فينتهي الامر الى الخصام والكدر والسقوط والهوان . ومن
شاهد التاريخ على ذلك موت اسکندر الكبير شاباً وهو راجع من فتوحاته في اسيا وموت
نابوليون الاول اسيراً ونابوليون الثالث غريباً مستجيراً في بلاد الانكليز

واما حب المال فيستظهر غالباً في دور الانحطاط من الحياة بحجة التجهيز لعجز الشيخوخة
او لحاجة العيال . وهو من الأهواء التي تشغل القلب وكثيراً ما ينتهي الى الجبل الذميمة ومحبة
النفس وعدم الشعور بزوايا الغير وسد الاذن عن صراخ البائس والمسكين . فبوت الجبل عابداً
للمال الى النعمة الاخيرة من الحياة . ومن امثال العرب المنسوبة الى لقان قولهم يشيب المرء وثبت
معه خلتان الحرص وطول الامل

وجميع هذه الأهواء غريزية في الانسان موضوعة فيه للخير لا للشر . فليس شيء من المحرمات
في المحبة الجنسية اذا كانت طاهرة مضبوطة او في حب التقدم اذا كانت وسائطة جائزة لا تخجف
مجتوق الغير او في جمع المال والاقتصاد بالحلال . ولكنها اذا تجاوزت هذه الحدود واقتضت
الى اعمال المحرمات والخساسة او اذا اشغلت كل عواطف الانسان وطردت منه ما يحق لله
والقريب وللنفس صارت شياطين تسكن القلب وتخدعه وتعذبه وتؤدي بصاحبها الى المملاك
ولذلك يجب التحذر العظيم منها لانها جرحت اقوياء كثيرين وقتلتهم . وافضل الوسائل
لضبطها او مقاومتها التربية الصالحة والتبصر بالعواقب وعلى الخصوص مخافة الله ومراقبة القلب
ودفع العدو قبل دخوله حصون النفس واستظهاره عليها بحيث يعسر اخراجه بعد ذلك

ويعتبر هذه التغيرات في طبيعة الانسان الجسدية والعقلية والادبية تغير اعظم منها جميعها واشد منها اعتباراً - هو الموت اي انتطاع الحياة ونوقف كل ما للجسد من الاعمال المحيوية . ويظهر من سجلات الموتى ان نحو خمس الجنس البشري يموت قبل السنة الاولى والثالث قبل السنة الخامسة ونحو النصف قبل السنة الخامسة والعشرين ثم ينال الموت بين هذا السن والستين ثم يشتد جداً بعد ذلك ويندر من يتجاوز السبعين . ويظهر ايضاً ان عدد المولودين يزيد على عدد الموتى بين الامم المتقدمة خلافاً لاكثر الشعوب المتوحشة . ومن الشواهد الصريحة على ذلك ان الامة الانكليزية لم تبلغ العشرين مليوناً في اوائل هذا القرن والآن صارت خمسة وثلاثين مليوناً ما عدا العدد العظيم الذي خرج منها ليجل في مستعمراتها الكثيرة مثل اميركا وكندا واستراليا وزيلاندا الجديدة وغيرها وهو لا يعد عن خمسين مليوناً . وهكذا سكان اوربا فان زيادة عددهم قد اجأتهم الى استعمار البلاد البعيدة على ما نرى في التاريخ الحديث وقائع هذه الايام . وبالعكس هنود اميركا وسكان جزاير صندويج وفيني وغيرهم المرعون نحو الانقراض الكامل . واما الامم المتوسطة بين النهرين والفرس فيظهر ان عددها ثابت بدون شيء عظيم من الزيادة والنقص . ويستدل من كل ذلك ان حالة النهرين والعيش في الامن والراحة والعدل من الامور التي لها فعل ظاهر في معدل عمر الانسان العام وزيادة عدد الامة . ويقال على الجملة ان من اراد ان يعيش حياة طويلة شيخوختها خالية بعض الخلو من اطفالها الكثيرة فليراع شروط الصحة العامة ولينجب العوائد القليلة المضعفة ولا يسرف في قوته كما لا يسرف في ماله . وليس في هذا القول ما يخالف الاعتقاد بالعناية الربانية والتقدير الالهي لان الله تعالى قد خلق الاشياء باسبابها كما انه ليس في طاعة الانسان ان يمنع الموت المقدور لكل ابن انثى وان طالت سلامته واكثر المسائل التي تتعلق بالموت بالاربيب مسألة خلود النفس وانتقالها الى حالة جديدة بعد انفصالها عن الجسد . وهو اعتقاد مبني خصوصاً على كلام الوحى المنزل ثم على ادلة عقلية كثيرة راهنة عند جمهور الفلاسفة من الزمن القديم الى الآن . وهو غريزي في الانسان مفروس في اعماق قلبه بحيث اذا اقتلع منه جبراً اقتلع معه كل ما يجعل للنفس العاقلة مقاماً رفيعاً في الخليقة والحياة شأننا يادق بها وبالمخالف العظيم الذي رقما الى هذا المقام وحاشاه ان يزجها الى الفناء الدائم . فمن ينكر خلود النفس لم يبق له الله بعدة ولا نور بهدي ولا رجاء عزيز يرجو ولا تعزية يعزى بها ولا غرض يطلبه الا باطل باطله كقبض الريح . ولا نعرف كيف يسد اذنيه عن صوت البشر العام وكيف يدفع جميع حجج الاجيال العديدة التي اجتمعت على انه متى رجع التراب الى الارض كما كان رجعت الروح الى الله الذي اعطاها